هوامش

في كتاب بعنوان «التاريخ الروسي المعاصر في 14 زجاجة فودكا»، صدر حديثاً في موسكو، يتناول الكاتب الصحافي، دينيس بوزيريوف، مسيرة تطور قطاع إنتاج الفودكا كمرآة لتاريخ روسيا ما بعد السوفييتية

تاريخ روسيا يقرأه دينيس بوزيريوف من خلال إنتاج الفودكا (العربي الجديد)

دينيس بوزيريوف

التاريخ الروسي المعاصر في 14 زجاجة فودكا

موسكو ـ **رامي القليوبي**

لم يعد مشروب الفودكا الروسي الشهير، البالغة نسبة الكحول فيه 40%، مجرد أحد أبرز رموز روسيا، وإنما جاء تاريخه بمثابة مرآة لتاريخ البلاد في مجالات أخرى من حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وبعد أن كان إنتاج الكحول حكراً على الدولة في عهد الاقتصاد المركزي في الحقبة السوفييتية، سيطرت عصابات المافيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي على هذا القطاع المربح في تسعينيات القرن الماضي، ووصل الأمر إلى إطلاق اسم «بوتينكا» على إحدى علامات الفودكا في بدايات عهد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

في كتاب بعنوان «التاريخ الروسي المعاصر في 14 زجاجة فودكا»، صدر حديثاً في موسكو، يتناول الكاتب الصحافي والمدون الروسي، دينيس بوزيريوف، مسيرة تطور قطاع إنتاج الفودكا كمرآة لتاريخ روسيا ما بعد السوفييتية، وكيف اختلطت فيه الصراعات من أجل المال والسلطة والنفوذ. وفي مقابلة مع «العربي الجديد»، يستعرض بوزيريوف تاريخ صناعة الفودكا في روسيا الحديثة، قائلاً: «إذا سألت أي أجنبي عن ثلاث كلمات تتعلق في ذهنه بروسيا، فستكون إحداها الفودكا حتماً، بينما قد تتراوح الكلمتان الأخريان بين البرد وبوتين، أو والفضاء والباليه، ولكن الفودكا لا تتغير. منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، شهد قطاع إنتاج الفودكا تطوراً كبيراً، ولكن عصابات المافيا كانت تتحكم فيه في البداية، وكان مرآة لما يجري في البلاد، بدءاً من الإصلاحات والرأسمالية الوحشية وانتشار الجريمة المنظمة، وتحكم العصابات لا الشرطة في شوارع المدن الروسية، ووصولا إلى مرحلة الهدوء في القرن الـ21».

في عام 2003، بدأ مصنع «كريستال» بإنتاج فودكا حملت علامة «بوتينكا»، لتأتي مؤشراً موضوعياً لشعبية بوتين، وفق ما يوضحه بوزيريوف، مضيفاً: «في ذلك الزمن، كان هناك مخاوف لدى الروس من شراء كحول مغشوش في متاجر التجزئة، فعندما بدأ إنتاج «بوتينكا» بالتنسيق مع قمة هرم السلطة، وبإذن من بوتين شخصيا، حظيت بإقبال عال من الزبائن الذين آمنوا بأن بوتين والمحيطين به لن يسمحوا بإنتاج فودكا سيئة الجودة تحمل اسمه، حتى لا يظن الناس عنه سوءاً، ويمتنعوا عن التصويت له في ذروة شعبيته بين ولايتيه الأولى والثانية».

وحول تأثير التغييرات في نسبة تأييد بوتين على مبيعات «بوتينكا»، يتابع: «لفترة طويلة، ظلت مبيعات «بوتينكا» تعكس صعود أو هبوط شعبية بوتين بدرجة أكبر حتى من استطلاعات الرأي التقليدية، بسبب خوف العديد من المستطلعة آراؤهم من الإجابة بصراحة خشية من تسريب بياناتهم. وكانت هناك دائماً صعوبات في تحقيق مبيعات كبيرة لـ«بوتينكا» في مناطق الشرق الأقصى الروسي التي تعد الأقل ولاء لبوتين وحزبه «روسيا الموحدة»، وكان ذلك واضحاً دائماً في نتائج الانتخابات أيضاً. ولكن، بحلول اليوم، لم يعد مصنعو «بوتينكا» يركزون على تسويقها، فسقطت من علامات الفودكا العشر أو حتى العشرين الأكثر مبيعاً». كما لم يعد لـ«بوتينكا» أي وجود لافت في متاجر التجزئة الروسية.

أقاويل كثيرة أثيرت في روسيا حول دور الفودكا والمشروبات الروحية في تاريخها المعاصر، وصلت إلى حد الزعم أن برنامج مكافحة إدمان الكحول الذي اعتمده آخر زعماء الاتحاد السوفييتي، ميخائيل غورباتشوف، في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، سرع انهيار الدولة السوفييتية، بعد أن كبد ميزانيتها خسائر فادحة بسبب تهاوي عوائدها الكحولية، في ظل احتكار الدولة لإنتاج الكحول وجميع الأنشطة الاقتصادية الكبرى.

إلا أن بوزيريوف يقلل من أهمية مثل هذه المزاعم، قائلا: «تفكك الاتحاد السوفييتي هو حدث تاريخي معقد، ناجم عن مجموعة من العوامل، وهناك حتى الآن مبالغة في مساهمة رسوم إنتاج الفودكا في الميزانية، وتدعو الأحزاب الشعبوية بمجلس الدوما (النواب) حتى اليوم إلى إعادة فرض احتكار الدولة لسوق الكحول، متحججة في ذلك بأن الفودكا كانت ذات يوم أهم مصادر تمويل خزينة البلاد، ولكنهم لا يذكرون أن ذلك كان يحدث في عهد روسيا القيصرية، قبل الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، حين لم تكن الخزينة تحصل على عوائد النفط والغاز على عكس ما كان عليه الحال في الحقبة السوفييتية أو اليوم».

ولا يزال الجدل دائرا حول من اخترع الفودكا، كونها مشروبا قديما انتشر بين مختلف الشعوب، ولكن عالم الكيمياء البريطاني، جورج غيلبين، كان له السبق عام 1792 في وضع المعادلة المثالية للفودكا، لاحتوائها على نسبة 38 في المائة من الكحول، ثم اقتبسه عالم الكيمياء الروسي الأشهر، دميتري مينديليف، في رسالته للدكتوراه بعنوان «عن خلط الكحول بالمياه» في عام 1865، ما رسخ للاعتقاد الشائع بأن الفودكا هي اختراع روسي بامتياز.

باختصار

بعد أن كان إنتاج الكحول حكراً على الدولة في عهد الاقتصاد المركزي في الحقبة السوفييتية، سيطرت العصابات على هذا القطاع

■■■

بدأ مصنع «كريستال» بإنتاج فودكا حملت علامة «بوتينكا»، لتأتي مؤشراً موضوعياً لشعبية بوتين، وفق ما يوضحه بوزيريوف

■■■

هناك مزاعم تقول إن برنامج مكافحة إدمان الكحول الذي اعتمده آخر زعماء الاتحاد السوفييتي، ميخائيل غورباتشوف، سرع انهيار الدولة السوفييتية

وأخيراً

في ذكرى الانتفاضة الفلسطينية

سما حسن

فجأة، يتغير كل شيء، بداخلك وحولك. ينتزعونك من صفك الدراسي ودرس لا تفهم شرحه، لكنك تحفظه من أجل امتحانٍ بغيضٍ في نهاية العام، ويسحبونك لكي تهتف باسم رابضٍ في أعماقك سرّا هو اسم فلسطين. فجأة تكتشف أن ما تحدّث عنه الجد العجوز من الممكن أن يعود، فقد كان يتحدّث عن وطنٍ مسلوب وحلم بعيد، ويتنهد كثيرا. وأصبح حقيقةً كُل ما يرويه عن ذكريات القرية البعيدة التي هجّر منها في عام النكبة، بما يشبه الأساطير التي تروى لكي ينام بعد سماعها الصغار. وفجأةً أيضا ترى الحلم الذي بناه الجيش الذي لا يقهر قد تقوّض. يكفي أن أحد أركانه قد تهدّم، وأصبح ذرّات من رمال، فها هو اليوم يغوص ويغرق ويتوه في وحل مخيم الثورة «مخيم جباليا» وأزقته.

تذكّر جيدا الجنود الراجلين المدجّجين بالسلاح، والذين كانوا يمرّون في أكثر الأزقة ضيقا، ويتلفتون يمنة ويسرة في توجس، ثم سرعان ما يتحوّل توجسهم إلى اطمئنان، فالصبية حولهم يتقافزون ويتضاحكون على مرآهم المضحك، فهم، على قصر قاماتهم وضآلة بنياتهم، يحملون أضعاف أوزانهم من السلاح والعتاد، ويمدّون أيديهم من جعبهم المعلقة خلف ظهورهم، فيُخرجون أدواتٍ ومتعلقاتٍ لا تتوقع أنه يمكن إخفاؤها في هذه الأماكن، ولأنهم يمضون وقتا طويلاً وهم يتدارسون التفافات الأزقة، ويطابقون بينها وبين خرائط مرسومة بين أيديهم. ويعتقدون أنهم قد حفظوها، حتى جاء ذلك اليوم الذي تاهوا وغرقوا في أزقة المخيمات التي أجبروا أصحاب الأرض على أن يقيموا فيها مصنفين لاجئين.

اشتعلت الثورة في الثامن من ديسمبر/ كانون الأول من العام 1987. وتذكّر ذلك اليوم جيدا، حين أعلن النفير العام في جميع أنحاء قطاع غزة، احتجاجاً على دهس شاحنة إسرائيلية، يقودها إسرائيلي سيارة يركبها عمّال فلسطينيون متوقفة في محطة وقود في مدينة أسدود، ما أودى بحياة أربعة أشخاص وجرح آخرين، وقد اكتفت الإذاعة الإسرائيلية وقتها بإعلان الخبر من دون أن تركّز عليه، لأنه لم يكن أكثر من حادث يشبه حوادث عديدة مماثلة كان يقوم بها إسرائيليون بشكل متقطع، ويردّ عليها الفلسطينيون. ولكن هذه الحادثة كانت مختلفة، حيث أشيع وقتها أن هذا الحادث كان عملية انتقام من والد أحد الإسرائيليين الذي تم طعنه قبل يومين من ذلك التاريخ، بينما كان يتسوّق في غزة، فاعتبر الفلسطينيون الحادث عملية قتل متعمّد. وفي اليوم التالي وخلال جنازة الضحايا، اندلعت احتجاجات عارمة، ألقت الحشود الغاضبة خلالها الحجارة على موقع للجيش الإسرائيلي، فأطلق الجنود النار من دون أن يفرّق ذلك الحشود، بل زادها إصرارا على المواجهة بالحجارة وقنابل المولوتوف محلية الصنع. ما حدا بالجيش الإسرائيلي بطلب المدد العسكري، وهو ما شكّل أول شرارة للانتفاضة التي حرّكت المياه الراكدة، أو بالأصح التي كانت واجهة أماميةً، لأسبابٍ كثيرة أدّت إلى اندلاعها، أهمها أن الشعب الذي ذاق مرارة التهجير لم يتقبل فكرة الاحتلال ودوامه، وإصرار هذا الاحتلال على إذلاله، خصوصا في ما يخصّ لقمة عيشه، فمقتل هؤلاء العمال أشعل فتيل الانتفاضة فعلا، لأن اللاجئ الفلسطيني الذي كان يضطر للعمل بذلّ ومهانةٍ داخل أراضيه المحتلة تحمّل الكثير، أجورا متدنية وتفتيشا على الحاجز الذي يفصل قطاع غزة عن الأراضي المحتلة (إيرز)، وصرامة القوانين بحقّه مقارنة بالعامل الإسرائيلي. وأمام هذا الوضع المتردّي وإفقار اللاجئ الذي كان يعتقد أن العالم سوف يجد حلا قريبا لقضيته، ووقتها كان الشارع الفلسطيني في حالة غليان، وينتظر الشرارة لكي يشتعل. وفعلا خرجنا إلى الشوارع نهتف باسم فلسطين تحت قيادة واحدة، وظلت الانتفاضة سنوات، وسقط الضحايا، وانتهت نهاية غير مُرضيةً ولا متوقعة. ولكنها حققت الإنجاز الأهم، وهو الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني عبر الاعتراف الإسرائيلي الأميركي بسكان الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة أنهم جزء من الشعب الفلسطيني، وأجهضت توقعات جندي إسرائيلي كان يعتقد أنه قد حفظ خريطة مخيم الثورة.

> الشعب الذي ذاق مرارة التهجير لم يتقبل فكرة الاحتلال ودوامه، وإصرار هذا الاحتلال على إذلاله

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**